# الأساس الذى تنبثق منه الأخلاق فى الإسلام

## بسم الله الرحمن الرحيم (*)

الحمد لله رب العالمين . . والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه إلى يوم الدين . .

**﴿رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾**(١) .

**أيها الإخوة المؤمنون :**

كل عام وأنتم بخير ، ونرجو الله سبحانه وتعالى أن يعيد هذه الذكرى المباركة وقد اتحدت كلمة زعماء المسلمين والعرب ، وقد انتصر الإسلام ، وقد استخلصنا « بيت المقدس » ، وقد طهَّرنا أرضنا الإسلامية من رجس الصهيونية .

**أيها الإخوة المؤمنون:**

إننى أشكر لجمعية مسجد سيدى جابر هذا النشاط الذى تقوم به . . وما من شك فى أن خيرَ النشاط الذى تقوم به : تحفيظ القرآن ، ودروس التقوية ، وغير ذلك من الأنشطة التى تقوم بها ؛

---

* هذه محاضرة للإمام عبد الحليم محمود ، أُلقيت فى مسجد سيدى جابر بالإسكندرية فى يوم ١٧/ ٣/ ١٩٧٧م ، وقد نقلناها بأسلوبها ولفظها .

(١) سورة البقرة: ٢٨٦ .

فجزاها الله خير ما يجزى العاملين للإسلام ونرجو الله سبحانه وتعالى أن يبارك فيها، وأن يبارك فى المشرفين عليها.

فيما يتعلق بأخلاقيات الإسلام: إنه موضوع جليل من أهم الموضوعات، ومن الممكن أن يتحدث الإنسان عن زوايا كثيرة من أخلاقيات الإسلام..

«الإسلام» أخلاقيات لا تكاد تنتهى.. الصبر.. الحِلْم.. الإنصاف.. العدل.. الإحسان... إلى غير ذلك من هذه النواحى الكثيرة التى يتحدث فيها المتحدثون، والتى استفاضت فيها السُّنَّة واستفاض فيها القرآن... وآيات الأخلاق فى القرآن أكثر من آيات التشريع وأكثر من آيات العقيدة نفسها.

ومن آيات الأخلاق فى القرآن ما يتضمنها أيضاً القصص الذى يتحدث عن الأنبياء..

وأحب فى هذه الليلة أن أتحدث عن الأساس الذى تنبثق منه الأخلاق فى الإسلام.

**ـ ما الأساس الأول.. الأصيل.. الذى تنبثق منه الأخلاق الإسلامية؟..**

هذا الأساس يستمد كيانه من كلمة «الإسلام» نفسها.. أى أن هذه المحاضرة، فى هذه الليلة، تكاد تكون مقصورة على شرح كلمة «الإسلام».. فإننا إذا ما شرحنا كلمة «الإسلام» عرفنا

الأساس الذى تقوم عليه الأخلاق الإسلامية، فضلاً عن الأساس الذى تقوم عليه العقيدة ويقوم عليه التشريع.

فيما يتعلق بكلمة« **الإسلام**» . . هذه الكلمة الإلهية الربانية . .

**ـ ما مفهومها ؟.. ما معناها ؟.**

إن علماء اللغة حينما يتحدثون عن كلمة الإسلام، يقولون: إن المسلم هو من خلصت عبادته ، وخلص سلوكه لله سبحانه وتعالى.

وإذا جئنا إلى المعنى الذى فسَّرها به رسول الله ﷺ حينما سُئل عن الإسلام. . فقال ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ:

« **الإسْلاَمُ أنْ يُسْلِمَ للَّه قَلْبُكَ ، وأنْ يَسْلَمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِكَ ويَدِكَ** ».

ـ هذا هو الإسلام فى تعريف رسول الله ﷺ . .

هذا المعنى . . « **أن يُسْلِمَ للَّه قلبُك** » . . تستفيض الأحاديث النبوية فى شرحه وتستفيض الآيات القرآنية فى شرحه . . إنهم يقولون مثلاً: أن يسلم لله قلبك فى العبادة والاستعانة ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾(١) . . لا نعبد إلا إياك، ولا نستعين إلا بك . . ومن شرحها ما قاله النبى ﷺ لابن عباس، وقد كان ـ آنذاك ـ غلاماً :

(١) سورة الفاتحة: ٥ .

« **يَاغُلَامُ ، احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تِجَاهَكَ ، وإذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ ، وإذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ ، واعْلَمْ أَنَّهُ لَوِ اجْتَمَعَ أَهْلُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيءٍ ؛ مَا نَفَعُوكَ إلاَّ بِشَيءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ .. وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيءٍ ؛ لَمْ يَضُرُّوكَ إلاَّ بِشَيءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ ، جَفَّتِ الأَقْلَامُ وطُوِيَتِ الصُّحُفُ** » .

ومن معانى « **أن يسلم لله قلبك** » : الآية القرآنية الكريمة : ﴿**قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ**﴾(١) كل المُلك . . اليسير من أمر المُلك ، والعظيم من أمر المُلك . فالعين من ملك الله ، والبصر فى العين من ملك الله ، والأذن من ملك الله ، والسمع فى الأذن من ملك الله . . القوة من ملك الله ، والذكاء من ملك الله ، والمال من ملك الله ، والجاه والقوة . . كل هذا من ملك الله .

﴿**قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾(٢) .

كل هذا من ملك الله ـ سبحانه وتعالى ـ وكل هذا من معانى : «**أن يسلم لله قلبك**» . .

وإذا أردت أن تختصر معنى « **أن يسلم لله قلبك** » تقول ما قاله

---

(١ ، ٢) سورة آل عمران : ٢٦ .

الإمام **البيرونى**، أعظم عقلية ظهرت على وجه التاريخ؛ بشهادة علماء أوربا.

سئل البيرونى: هل تستطيع أن تعبِّر عن الإسلام بكلمة واحدة؟

قال: نعم.. « **التوحيد** »..

كل هذه المعانى تتبلور أيضاً فى كلمة أخرى واحدة هى شعار المسلمين هى كلمة التوحيد، هى أشهد ألاَّ إله إلا الله، فمعناها الحقيقى هو أن يسلم لله قلبك، وأشهد ألاَّ إله إلا الله من معانيها ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾(١).. ومن معانيها: التوحيد، ومن معانيها: السجود؛ وهو أن يسجد القلب لله ـ سبحانه وتعالى ـ «**وَلِلْقَلْبِ سُجُودٌ كَمَا لِلْجَبْهَةِ سُجُودٌ**»..

ومعنى سجود القلب: الخشوع الكامل لله سبحانه وتعالى.

« **أن يسلم لله قلبك** » هذا هو الأساس ـ كما قلنا ـ للأخلاق الإسلامية، وإذا أردنا شيئاً من التفصيل فى معنى « **أن يسلم لله قلبك** » فإنَّا نقول ما قاله الله سبحانه وتعالى آمراً به رسول الله صلوات الله وسلامه عليه:

﴿**قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ**﴾(٢).

«الصلاة» هنا هى الصلاة العادية التى نعرفها من قيام وركوع

---

(١) سورة الفاتحة: ٥.

(٢) سورة الأنعام: ١٦٢، ١٦٣.

وسجود ؛ ولكن من وراء هذا المعنى أيضاً : أن الصلاة هى الصلة بالله سبحانه وتعالى . .

ومعنى هذا : أن تكون على صلة بالله سبحانه وتعالى بقلبك ، فالصلاة رمز لأعمال القلوب كما أنها ـ فى حقيقتها ـ الصلاة المفروضة .

﴿ **قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى** ﴾ (١) . . و«النُّسك» معناه الحقيقى العادى : البذل والتضحية والفداء وأعمال الجوارح وأعمال القلوب ـ إذا خلصت لله سبحانه وتعالى .

ولكن ليس ذلك فحسب ، وإنما : يعمِّم الله سبحانه وتعالى الأمر تعميماً فيقول : ﴿**وَمَحْيَاىَ**﴾(٢) : حياته بأكملها ، حياته نوماً ويقظةً ، حركةً وسكوناً ، حياته قولاً وصمتاً ، حياته خطوات حياته أنفاساً . . حياته بأكملها خلصت لله سبحانه وتعالى .

وليست حياته فقط ، وإنما : مماته أيضاً ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ كان لله . . ففى سبيل الله هذه الحياة التى تَمحَّضت لله سبحانه وتعالى . هى قمة الفضيلة . . هى قمة الأخلاق .

ومن المناسب هنا أن نتحدث ـ فى كلمات وجيزة ـ عن قول رسول الله ﷺ :

« **إِنَّما بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ** » .

---

(١، ٢) سورة الأنعام : ١٦٢ .

هذا الحديث الشريف لا يقول: إنما بُعثتُ لأنشرَ الأخلاق. ليس هذا هو اللفظ النبوى، إنما اللفظ النبوى: «**إنَّما بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكارِمَ الأخْلاَق**».

ولا يقول: إنما بُعثت لأتمم الأخلاق. كلَّا، وإنما يقول: لأتمم مكارم الأخلاق.

ومعنى هذا أن مكارم الأخلاق لم تكن قد تمت قبله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لم تكن قد تمت فى شخص من الأشخاص، ولا فى رسول، ولا فى نبىّ، لم تكن مكارم الأخلاق قد تمت، وكان العالم ناقصاً مادةً وروحاً، كان ينقصه مكارم الأخلاق، فلمَّا وُجد رسول الله ﷺ كَمُلَ العالم.. لأنه تَمَّمَ مكارم الأخلاق.

لو لم يُبعث رسول الله ﷺ لظلت مكارم الأخلاق ناقصة ولظل العالم ناقصاً. فلما بُعث تَمَّمَ مكارم الأخلاق؛ تَمَّمَهَا بذاته، أى: بسلوكه، وتَمَّمَهَا بقوله، أى: بأحاديثه. كان العالم ناقصاً، كان ينقصه أن يتعطر جوه بأزكى الأرواح. لم تكن أزكى الأرواح قد وُجدتْ بعد..

وكان ينقصه أن تتعطر مادته بأزكى الأجساد، فلمَّا وُجد رسول الله ﷺ تمَّ أسمى شىء فى العالم تمت مكارم الأخلاق: فتمَّ العالم مادةً، وتمَّ العالم روحاً، إذْ وُجدتْ فيه أزكى الأرواح ووُجد فيه أزكى الأجساد.

صلوات الله وسلامه عليك يا سيِّدى يا رسول الله؛ إنما بُعثتَ لتتمِّمَ مكارمَ الأخلاق.

ومكارم الأخلاق التى بُعثتَ لتتميمها إنما هى أن يتمحَّض الإنسان تمحُّضاً كاملاً لله سبحانه وتعالى.. أن يكون الإنسان ربَّانياً خالصاً لله سبحانه وتعالى.

قلنا: إن الإسلام هو أن يسلم لله قلبك.. ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾(١)، وهو التوحيد، وهو السجود لله سبحانه وتعالى، وهو أشهد ألاَّ إله إلا الله.. كل هذه معانى الإسلام.

والتوحيد يتحدث عنه القرآن كثيراً، وفى سورة قصيرة، ولكنها كاملة تامة شاملة عامة هى ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ**﴾(٢).

فى ليلة من الليالى، قال رسول الله ﷺ للصحابة بعد صلاة العشاء:

« **احْشِدُوا ـ بمعنى (اسْتَعِدُّوا) ـ سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ القُرْآن** ».

واستعدَّ الصحابة: بعضهم راح يعدُّ لنفسه غطاء وفرشاً، وبعضهم أحضر ماء ليشرب إذا عطش، كل منهم استعدَّ، فإن الرسولَ سيقرأ عليهم ثلث القرآن إلى الفجر تقريباً. فقرأ عليهم: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ**﴾(٣). ثم ذهب إلى بيته.

---

(١) سورة الفاتحة: ٥.

(٢، ٣) سورة الإخلاص.

فقال الصحابة : ثمة أمر حدث .

بعد فترة من الزمن عاد إليهم وقال لهم : « **مَاذا تَنتظرون ؟** » .

قالوا : إنك قلت : سأقرأ عليكم ثلث القرآن .

قال : « **والَّذى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيدِهِ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ① اللَّهُ الصَّمَدُ ② لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ③ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾**[1] **تَعْدِلُ ثُلُثَ القُرآن** » .

وفى يوم من الأيام جىء لرسول الله ﷺ برجل يقرأ ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**﴾[2] فى كل صلاة ، لا يكاد يتعداها إلى قراءة غيرها . .

وسأله رسول الله ﷺ : « **لِمَ تَفْعَلُ ذَلِكَ يَا رَجُل ؟** » .

فقال : إنى أحبها ، لأنها وَصْفُ الله سبحانه وتعالى .

فقال ﷺ : « **حُبُّكَ إيَّاهَا أَدْخَلَكَ الجَنَّة** » .

من يحب ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**﴾[3] يحب التوحيد ، والمسلم يجب أن يكون موحِّداً خالصاً لله سبحانه وتعالى .

ولنتأمل قليلاً فى بعض معانى ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**﴾[4] ، فى هذه السورة التى تصف الله سبحانه وتعالى :

لم يقل الله : «قل هو الله واحد» ، ولكن قال : ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**﴾[5] . . هل هناك فرق بين واحد وأحد ؟ ما معنى «أحد» ؟

---

(١ـ ٥) سورة الإخلاص .

إن معناها يتضح إذا شرحنا معنى «واحد» . . محمد أو حسن يوصف بأنه واحد، ولكن مع ذلك له رأس والرأس جزء، وله عينان وكل عين جزء، وله ذراعان، وله رِجْلان، وله كل هذه الأجزاء، ولكنه واحد.

أى أن كلمة «واحد» لا تمنع أن يكون له أجزاء . . أما «أحد» فإنها تمنع ذلك كليَّةً . . لا أجزاء له ولا تركيب فيه ـ نفت أولاً الشريك، ونفت التركيب.

﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾(١) . . الذى يُلْجَأُ إليه فى كل الأمور:

« إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ وإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّه » . .

لأنه الصمد الذى تتجه إليه الآمال وتتجه إليه المطالب وتتجه إليه الحاجات، وهو وحده الذى تتجه إليه آمال الإنسان، يسيرةً كانت أو عظيمةً.

﴿لَمْ يَلِدْ﴾(٢) وحاشاه، ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾(٣) وحاشاه، ليس له ابنٌ ولم يكن له أبٌ؛ فهو لم يُولد.

وتقرير هذه الحقيقة وتنزيه الله عن الولد يتكرر فى القرآن بصور أقوى ما تكون:

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾(٤).

---

(١ـ ٣) من سورة الإخلاص. (٤) سورة مريم: ٨٨ ـ ٩٢.

هذه الآيات تستبعد وتستنكر أن يكون لله ولد : إنه أزليٌّ وأبديٌّ ودائمٌ ولم يكن مخلوقاً . .

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾(١) . . ليس له مثيل ، وليس له ندٌّ، وليس له شبيه ، إنه وحده الذى يخلق ويرزق ويعطى ويمنع وهو الذى تتجه إليه الآمال . .

وأنتم تعلمون من عادات الريف ، بل من الفطرة : الاحتياج إلى الولد للمساعدة والعون ، والمساعدة تعنى الحاجة ، وذلك نقص فينا ، ولو كنا كاملين لما احتجنا إلى الولد . والله ـ سبحانه وتعالى ـ كامل لا ينقصه شىء ؛ فهو سبحانه وحده ، هو الكمال الكامل غير ناقص ، غير محتاج إلى الابن .

نرجع إلى بيان أن سورة :

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ﴾(٢) . . تعدل ثلث القرآن لأنها تقرِّر العقيدة .

**بعد ذلك نسأل أنفسنا:**

ـ ما أهم صفة يتحلَّى بها المسلم الذى أسلم قلبه لله تعالى ؟ . .

ـ هل هى السلبية ؟ . .

لا . . إنها الجهاد ، والجهاد ليس سلبياً ، فبمجرد أن تسلم قلبك لله تنخرط فى سلك المجاهدين .

---

(١ ، ٢) من سورة الإخلاص .

إن العلامة التى توضِّح إن كنت قد أسلمت قلبك لله أم لا : الجهاد مع المجاهدين . .

ونحن أبعد ما نكون فى جهودنا وفى عموم أحوالنا عن صفة الجهاد . .

أضرب مثلاً يمثِّل الجهاد اليسير ومع ذلك نحن لا نقوم به :

نحن قد تضيق صدورنا بأمور « التليفزيون » أو الإذاعة أو الجرائد ، وفى العمل اليومى - فى الشارع أو فى المكتب أو فى الديوان - قد تضيق صدورنا بأمور نراها أو نسمعها أو نشاهدها ، ومع ذلك لا يتحرك أحد منا لكتابة كلمة إلى المسئولين أو برقية .

جاء رجل يبايع رسول الله ﷺ . . قال له : أبايعك على الإسلام . فقال رسول الله ﷺ : « **والنُّصْح** » .

فمن شروط الإسلام النصح لكل مسلم . عندما ترى شيئًا تضيق به صدراً عَبِّرْ فى كلمة ، أو فى حديث مع المسئولين . . لكنك لا تفعل .

إن أحد كبار المسئولين فى الإذاعة قال لى : إن هناك بلاداً إذا حدث مجرد همسة ؛ وردت فيها مئات البرقيات للاحتجاج . . ولكن - هنا - إذا هُدم ركن من أركان «الإسلام» لا تأتينا برقية ، ولا خطاب ، ولا احتجاج . .

المسلمون متكاسلون متواكلون .

**مثال آخر :**

قرأت مقالة ليست مستقيمة، رأيت رسماً «كاريكاتورياً» فى «التليفزيون» أو فى وسائل الإعلام يتهكم على الإسلام. إنك لا تهتم.. لا أحد يكتب احتجاجاً.. مع أنه لا خوف الآن من «القبض» ولا من الاعتقال على من يكتب !

أين من يجاهد بلسانه ؟!.. مع أن أخصَّ صفة لمن أسلم قلبه لله تعالى : (الجهاد).

والجهاد أنواع كثيرة.. جهاد النفس لكى تتزكَّى.. والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾[1]..

أى : زكَّى نفسه.

وجهاد الأسرة لكى تستقيم، وهذه مسئولية الأب ومسئولية الأم، ومسئولية الابن الراشد.. وكل أفراد الأسرة - جميعها - متضامنون فى المسئولية ؛ لتستقيم الأسرة، وكلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيَّته.

والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾[2]..

نقى أنفسنا بالجهاد ونرشد أهلينا إلى الفضائل ونبعدهم عن الرذائل، فذلك وقاية لهم من النار.

---

(١) سورة الشمس: ٩.

(٢) سورة التحريم: ٦.

جهاد النفس لكى تتزكَّى( من علامات الإسلام) ، وجهاد الأسرة لكى تستقيم أمورها ( من علامات الإسلام) والجهاد فى المجتمع هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وله درجاته.

ويقول رسول الله ﷺ :

« **مَا مِنْ نَبِىٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ إلَى أُمَّتِهِ : إلاَّ وَكَانَ لَهُ حَوَارِيُّونَ وَأَصْحَابٌ . .** » . .

[ الطبقة الأولى : **الحواريون** . . وطبقة **الأصحاب** : الطبقة المؤمنة ].

« . . **يَهْتَدُونَ بِهَدْيِهِ ، وَيَقْتَدُونَ بِسُنَّتِهِ ، ثُمَّ إنَّهُ تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ وَيَفْعَلُونَ مَا لاَ يُؤْمَرُونَ** » .

ـ ما الموقف بالنسبة لهؤلاء ؟ . .

مَنْ جاهدهم بيده فهو مؤمن . . ومَنْ جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل.

فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن. لابد من الجهاد باليد ، وذلك شأن الحاكم ـ والأمر ليس فوضى فى الإسلام ـ واحد يجاهر بالمنكر يواجهه الحاكم باليد، بالسلطة، وبالحبس، وبالسجن.

ومَنْ جاهدهم بلسانه فهو مؤمن . . والجهاد باللسان هو النصيحة والإرشاد والهداية.

«**وَلأَنْ يَهْدِىَ اللَّهُ بِكَ رَجُلاً خَيْرٌ لَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا** ».

وهذا الجهاد باللسان هل هو من مهمة علماء الأزهر والوعاظ والأئمة فحسب ؟! . . ليس الأمر كذلك، لماذا ؟ . .

لأن المسئولية تترتب على المعرفة . . هذه قاعدة عامة ، أو مطلقة ؛ فمعرفتى أنا مثلاً بحرمة الخمر كمعرفة أىِّ شخص من الشعب . . ومعرفتى هى مسئوليتى فيما يتعلق باجْهاد .

والمسئولية على كل من يعرف أن الخمر حرام . وكلنا مسئول أمام الله سبحانه وتعالى فيما يتعلق بهذا الأمر : نساءً ورجالاً وشباباً وشابات ؛ لأن المسئولية تترتب على المعرفة .

الخمر لعنها الله والرسول ﷺ ومنها « البيرة » ولسنا فى حاجة لأن نؤكد ذلك ، ولسنا نحن فقط الذين نقول عنها ذلك ؛ المؤتمرات التى تُعقد فى أمريكا ، والتى يحضرها علماء النفس والاجتماع ، ويحضرها الكيميائيون والأطباء والصيادلة ، تقرر هذه المؤتمرات أن البيرة نوع من الخمر ، والخمر يلعنها الله فى نفسها كَمَادَّة ويلعنها فى شاربها ، ويلعنها فى عاصرها وفى حاملها ، يلعنها فى كل الظروف وفى كل الملابسات . . الخمر حرام من رجس الشيطان ، إنها أم الخبائث ـ كما يقول التعبير الشعبى .

حدث أمر فى غاية الغرابة : شركة مصر للطيران حدث فيها أن بعض الضُّبَّاط الطَّيَّارين امتنعوا عن حمل الخمر فى الطائرات لأنه

حـرام، كنت أتصـور أن ترسل إليـهـم الشـركـة «جـواب شكر» لاهتـمـامهـم بدينهم وامتناعهم عن حمل الخمر لأن حملها يضر وقد يسبب كارثة . .

مـاذا فـعلت شـركـة الطيـران ؟ . . نكَّلت بهم . . واحـد منهم مستقر فى القاهرة مع أسرته نقلته إلى أسوان . . والثانى نقلته إلى الأقصر . . وتهديدات لا حصر لها بالغرامة والفصل وبما يضر الموظف .

ويأتى هؤلاء إلى الأزهر . . ويكتب شيخ الأزهر خطاباً إلى مدير شركة الطيران ويبيِّن له حكم الله فى هذا الأمر، وأن هؤلاء الناس فُضَلاء . . لكن لم تستجب الشركة .

وأنتم تعلمـون أن الأزهر ليس سلطة تنفـيذية، وهـذا الخطاب نُشـر فى الصـحف . . كنت أتوقع بعـد نشره ومـعـرفـة الصـغـيـر والكبير له أن يتصل أحد المسئولين بالشركة ويقول لهم « اختشوا على أنفسكم » . .

ـ لماذا تتشبث الشركة بالخمر ؟ . .

تقول : من أجل السائحين .

وهذا كذب، فـالشركة السعودية لا تحـمل الخمر، ولا تبيع الخمر، ولا تشترى الخمر، والإقبال على الشركة السعودية أكثر من الشركة المصرية .

هذا مثال ننقله - فى صورة عابرة - يبيِّن أننا - فيما يتعلق بالجهاد - لا نقيمه كما ينبغى . .

الجهاد باللسان واجب يترتب على المعرفة ، وما دام كلنا يعرف فالمسئولية علينا جميعاً وليست المسئولية فحسب على الوعاظ من علماء الأزهر .

والمسئولية تترتب على المعرفة وليست على المهنة لأنها إيمان وإسلام .

أما الجهاد بالقلب فهو بالنسبة لنا جميعاً أضعف الإيمان ، لكنه ليس سلبياً . . فأنت حينما ترى المنكر تسير فى طريقك وتستعيذ بالله وتقول : الحمد لله الذى عافانى من هذا . بهذا تكون آثماً وليس قولك هذا جهاداً بالقلب . .

المسئولية هى النصيحة فإن لم تستطع تأتى مرحلة الجهاد بالقلب . فإذا كان المخالف للدين تاجراً فلا تشترِ منه . . وإذا اشتريت منه فأنت آثم ، وإذا كنت أنت التاجر وهو الشارى فلا تَبِعْ له (والله يعوّض) ، وإذا كان مرشَّحاً فى الإدارة أو فى البرلمان فلا تنتخبه ولا تصاحبه ولا ترافقه .

كل هذا منبثق من أنك تسلم لله قلبك . . إذا أسلمت فالجهاد هو الصفة الأساسية التى تنبثق من القلب عندما تتحدث بهذه الصورة .

بعض الناس يتشاءمون . . الجهاد فى الإسلام جهاد متفائل ، والشخص المتفائل هو الذى يفعل ويسعى ويجتهد ، والشخص المتشائم خامل : تشاؤمه يجعله فى كسل وفتور ؛ ولذا فالجهاد الإسلامى متفائل .

وهناك صورة نختم بها الحديث عن الجهاد المتفائل فى غزوة الأحزاب :

اليهود ألَّبوا الجزيرة العربية على المسلمين فى المدينة . . والمسلمون فى المدينة عددهم محدود ، وذلك فى السنة الخامسة من الهجرة . واليهود بمالهم وبمكرهم وبخبثهم كانوا بالجزيرة العربية يؤلِّبون على الإسلام . وجيَّشت القبائل جيوشها الجرَّارة بما عندها من العَدد والعُدَّة . . وتأتى هذه الجيوش نحو المدينة لتقضى عليها دنيا ودِيناً وتسوِّيها بالأرض . .

لم يكن فى هذا العمل شهامة ، أو مروءة . . تأتى كل هذه الجيوش لتقضى على قرية صغيرة . . ماذا فعل المسلمون ؟ . .

شاور الرسول ﷺ الصحابة ، وانتهى أمر المشورة بالاتفاق على أن يحفروا خندقاً . . فليُحفر الخندق .

وكان الرسول ﷺ يحمل التراب معهم على كتفه ، ويفعل كما يفعل الآخرون : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلىّ ، وكبار الصحابة ، وكلهم يحفرون الخندق . .

أقطع الحديث دقائق لأقص قصة أحد الصحابة : رأى رجل

رسول الله ﷺ يلوح عليه شيء من الإجهاد فذهب إلى زوجته وقال لها: أليس عندك طعام أدعو إليه رسول الله ﷺ ؟

فقالت إن عندها ماعزاً . . وعندها مقداراً من الدقيق . وهذا يكفى رسول الله ﷺ وعدداً قليلاً معه . .

وذهب الرجل إلى رسول الله ﷺ ودعاه وقال له: وليكن معك اثنان أو ثلاثة . . وإذا برسول الله ﷺ يقول للجميع وكانوا حوالى سبعين أو ثمانين شخصاً: هَيَّا إلى طعام فلان .

أُحرج الرجل . . ماذا يقول الرجل ؟ . .

سبق الصحابى وراح لامرأته مضطرباً خَجِلاً وقال لها: حدث كذا وكذا . .

فسألته: هل قلت لرسول الله : المقدار كذا وكذا ؟

قال: نعم .

فقالت له: هو أعلم بشأنه .

وجاء رسول الله ﷺ وأخذ هو الطعام ـ ( الدقيق معمول خبزاً والماعز مشوىّ ) ـ أخذ الطعام وقال لأحد الصحابة: أدخلْ عشراً، وأخذ يعطيهم، فأكلوا، ثم أدخل عشرة ثانية، وعشرة ثالثة، إلى أن أكل الجميع وبقى لأهل البيت طعام كثير .

هذا الذى أقصُّه ليس حديثاً ضعيفاً وليس من الأحاديث التى تُترك، روته كتب السُّنَّة مثل البخارى ومسلم، وهو صحيح .

كانوا يحفرون الخندق وقد قسَّموا الخندق لكل قسم مجموعة من الصحابة يختصون بحفره، والرسول ﷺ يعمل كما يعمل الآخرون، فاعترضت طائفة منهم صخرة لا تعمل فيها المعاول، ولو تُركت يمكن أن تكون مَعْبراً للجيوش المعادية، فأقبلوا على رسول الله ﷺ، وحدَّثوه عن الصخرة، فأخذ المِعْوَل - وهو قوىٌّ روحيّاً - وقال: « **بسم اللَّه الرحمن الرحيم** »، وضرب الصخرة فانهار جزء منها، فقال:

« **الحمدُ للَّه، فُتِحَتْ فَارِس، وإنِّى لأرَى المَدائِنَ وأرَى قَصْرَها الأبيضَ مِنْ مَكانى هَذا** ».

ثم قال: «**بسم اللَّه الرحمن الرحيم**»، وهوى بالمعول فانهار جزء ثان، وقال الرسول ﷺ:

« **فُتِحَتِ الشَّام .. واللهِ إنِّى لأرَى قُصُورَها الحُمْرَ مِنْ مَكانى هَذا** ».

ثم هوى بالمعول مرة ثالثة فانهارت الصخرة.. قال:

«**الحمدُ للَّه .. فُتِحَتِ اليَمن، وإنِّى لأرَى أبوابَ صَنْعَاء** ».

وكان سلمان الفارسى بجواره فقال له رسول الله ﷺ:

« **هذه فُتوحٌ يَفتحُها اللَّهُ عَلَى المُسْلِمين** ».

فكان سلمان، فيما بعد - فى عهد سيدنا عمر - حاكماً على المدائن متربعاً فى قصرها الأبيض يقصُّ هذه القصة ويقول فى نهايتها: صدقَ رسول الله ﷺ.

هذا هو الجهاد المتفائل، هذه هى النتائج لمن أسلم قلبه لله. هذه هى النتائج .. نتائج وثمرات للفرد والأسرة..

للفرد باعتباره فرداً، والأسرة باعتبارها أسرة، وللمجتمع كله.

فإذا أسلم الفرد قلبه لله، وإذا أسلمت الأسرة قلبها لله، وإذا أسلم المجتمع قلبه لله. هكذا ينالون النصر وسعة الرزق وحماية الله سبحانه وتعالى وتوفيقه ورعايته.

كل ذلك يحيط بالفرد إذا أسلم قلبه لله، وبالأسرة إذا أسلمت وجهها وقلبها لله، وبالمجتمع إذا أسلم قلبه لله.

**هناك قضيتان**: قضية النصر، وقضية استمرار النصر.

فى القرآن قوانين النصر، وقوانين استمرار النصر:

**﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ﴾**(١).. هذا قانون النصر..

واستمرار النصر يتوقف على هؤلاء:

**﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾**(٢).. وبعدوا عن اللهو والملاهى..

**﴿وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾**(٣).

---

(١) سورة النور: ٥٥.

(٢، ٣) سورة الحج: ٤١.

**أيها الإخوة المؤمنون :**

إننا إذا أسلمنا قلوبنا لله سبحانه وتعالى، وانتهى بنا الأمر إلى أن نجاهد فى سبيله فإن الله سبحانه وتعالى يتكفل لنا بكل خير.

إن قوله تعالى : ﴿**وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾[1] لا يحدُّه حدود : بَشِّرهم بالنصر، بَشِّرهم بالفوز، وبَشِّرهم بسعة الرزق، بَشِّرهم بمغفرة الله . . وبحب الله . . وبرحمة الله . . وبشِّرهم برضوان الله، وبشِّرهم بكل خير.

وفى نهاية حديثنا هذا : نتقرب إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالخطوة الأولى فى تاريخ القرب منه . . وهى **التوبة الصادقة الخالصة النصوح.**

فى هذه الليلة المباركة من شهر ربيع الأول، شهر رسول الله ﷺ نرجو الله سبحانه وتعالى أن يمنَّ علينا بقبول التوبة.

**نقول جميعاً :**

* تُبنا إلى الله . . ورجعنا إلى الله . . وندمنا على ما فعلنا . . وعزمنا على ألاَّ نعود للذنب أبداً . . ونحن بريئون من كل دين يخالف دين الإسلام، ونشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأن سيِّدنا محمداً ﷺ رسول الله . . رضينا بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبسيِّدنا محمد ﷺ نبيّاً ورسولاً.

---

(١) سورة التوبة: ١١٢.

* اللهمَّ صَلِّ على سيِّدنا محمد . . الحبيب ، الشفيع ، الرؤوف ، الرحيم ، الذى أخبر عن ربه الكريم أن لله تعالى فى كل نفس مائة ألف فَرَج قريب . اللهمَّ صَلِّ على سيِّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلِّم تسليماً ، وكُنْ بنا وبالمؤمنين رؤوفاً رحيماً .

الصلاة الأولى هى صلاة الفرج . .

والصلاة الثانية ذكرها أحد الصالحين ، ولىٌّ من أولياء الله ، كان يرى رسول الله ﷺ فى الرؤيا ، فقال : فى المرة المقبلة حينما أراه أسأله عن الصلاة التى أصلِّيها عليه . فكانت هى التى علَّمها إياه رسول الله ﷺ . .

والصلاة الثالثة للشيخ المدبولى ، من أولياء الله . . وهذه الصلاة من أجمل الصلوات :

**« اللهمَّ إنَّا نسألكَ بكَ أَنْ تُصَلِّىَ وتُسَلِّمَ عَلَى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ ، وعَلَى سَائِرِ الأَنْبِيَاءِ والمُرْسَلِينَ .. وعَلَى آلِهِمْ ، وصَحْبِهِمْ ، أَجْمَعِين .. وأَنْ تَغْفِرَ لَنَا مَا مَضَى ، وأَنْ تَحْفَظَنَا فِيمَا بَقِىَ .. بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِين » .**

**والحمد لله ..**

* * *

# مراجع الكتاب


* القرآن الكريم .

١ـ تفسير القرآن العظيم ـ لابن كثير .

٢ـ روح المعانى ـ للآلوسى .

٣ـ الجامع لأحكام القرآن ـ للقرطبى .

٤ـ أنوار التنزيل وأسرار التأويل ـ للبيضاوى .

٥ـ الكشاف ـ للزمخشرى .

٦ـ مفردات القرآن ـ للراغب الأصفهانى .

٧ـ تفسير القرآن الكريم ـ للشيخ محمد عبده .

٨ـ فتح البارى بشرح صحيح البخارى ـ لابن حجر العسقلانى .

٩ـ صحيح الإمام مسلم .

١٠ـ المستدرك على الصحيحين ـ للحاكم النيسابورى .

١١ ـ المسند ـ للإمام أحمد بن حنبل .

١٢ ـ صحيح ابن حبَّان .

١٣ـ الجامع الصحيح ـ للإمام الترمذى .

١٤ ـ سنن أبى داود .

١٥ـ سنن ابن ماجه .

١٦ ـ سنن النسائى .

١٧ ـ سنن الدارمى .

١٨ ـ السنن الكبرى ـ للبيهقى .

١٩ ـ شُعب الإيمان ـ للبيهقى .
٢٠ ـ المعجم الكبير ـ للطبرانى .
٢١ ـ المصنف ـ لابن أبى شيبة .
٢٢ ـ الأم ـ للإمام الشافعى .
٢٣ ـ الرسالة ـ للإمام الشافعى .
٢٤ ـ السيرة النبوية ـ لابن هشام .
٢٥ ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ـ لأبى نعيم الأصبهانى .
٢٦ ـ الطبقات الكبرى ـ لابن سعد .
٢٧ ـ معجم الأدباء ـ لياقوت الحموى .
٢٨ ـ إخبار العلماء بأخبار الحكماء ـ للقفطى .
٢٩ ـ الفكاهة ـ للزبير بن بكار .
٣٠ ـ الشوقيات ـ لأحمد شوقى .
٣١ ـ إحياء علوم الدين ـ للإمام أبى حامد الغزالى .
٣٢ ـ المنقذ من الضلال ـ للإمام أبى حامد الغزالى .
٣٣ ـ تهافت الفلاسفة ـ للإمام أبى حامد الغزالى .
٣٤ ـ حىّ بن يقظان ـ لابن طفيل .
٣٥ ـ الإشارات والتنبيهات ـ لابن سينا .
٣٦ ـ فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال ـ لابن رشد .
٣٧ ـ الرعاية ـ للمحاسبى .
٣٨ ـ فهم القرآن ـ للمحاسبى .

٣٩ ـ لطائف الإشارات ـ للقشيرى .
٤٠ ـ الجمهورية ـ لأفلاطون .
٤١ ـ الفلسفة اليونانية ـ لألبير ريفو .
٤٢ ـ تاريخ الفلسفة الغربية ـ لبرتراند رسل .
٤٣ ـ تاريخ الفلسفة اليونانية ـ ليوسف كرم .
٤٤ ـ المشكلة الأخلاقية والفلاسفة ـ لأندريه كريسون .
٤٥ ـ الأخلاق وعلم العادات ـ لليفى بروهل .
٤٦ ـ الرد على المنطقيين ـ للإمام ابن تيمية .
٤٧ ـ الفتاوى ـ للإمام ابن تيمية .
٤٨ ـ الفصل فى الملل والأهواء والنحل ـ للإمام ابن حزم .
٤٩ ـ الدين والوحى والإسلام ـ للشيخ مصطفى عبدالرازق .
٥٠ ـ قصة النزاع بين الدين والفلسفة ـ للدكتور توفيق الطويل .
٥١ ـ بناء الإنسانية ـ لبريفولت .
٥٢ ـ تجديد التفكير الدينى فى الإسلام ـ للدكتور محمد إقبال .
٥٣ ـ محاضرات فى العلوم عند العرب ـ للدكتور عبد الحليم منتصر .
٥٤ ـ دائرة المعارف الإسلامية .
٥٥ ـ مجلة «الرسالة الإسلامية» ـ وزارة الأوقاف بالعراق .

***